



هل بدأت روسيا وإيران عملية منهجية لإسقاط مسار فيينا لإنهاء الأزمة في سوريا، بعدما أحبطتا مسار جنيف قبله؟ المؤكّد أن لديهما أسباباً، خصوصاً روسيا التي تعتبر أن الأطراف الأخرى الجالسة إلى الطاولة لم تغيّر موقفها من نظام بشار الأسد، أي أنها لم تفهم بعد مغزى التدخل الروسي أو لا تريد الاعتراف بالتغيير الذي طرأ على موازين القوى داخلياً لمصلحة النظام. أما إيران فكانت ولا تزال رافضة صيغة جنيف لـ«حكم انتقالی»، والفارق بينها وبين روسيا أن الأخيرة تقبل تكتيكيّاً البحث في «الانتقال» كطريقة جدلية لتسويق مفهومها لـ«بقاء الأسد».

منذ عشية مؤتمر الرياض للمعارضة، بدأت موسكو تطلق إشارات اعتراضية متتالية تلقتها واشنطن بالإعلان فجأة عن زيارة جون كيري روسيا. كانت بداية الاعتراضات على نقل لقاء «مجموعة فيينا» إلى نيويورك، وتواصلت باستعجال الحصول على قائمة «التنظيمات الإرهابية» التي كلف الأردن بإعدادها، ثم برفض الصفة التمثيلية للمعارضين المدعوين إلى الرياض، وكان آخرها تساؤل سيرغي لافروف لماذا ترفض واشنطن إشراك «نظام الأسد» في الحرب على «داعش»...

كل ذلك يشي بأحد أمرين:

إما أن الروس يرون أن الخطوات التمهيدية لتطبيق «خربيطة فيينا» لا تسير على النحو الذي يناسبهم، وإنما أنهم يريدون مساومة الأميركيين على شروط جديدة لاستمرارهم في تبني هذه «الخربيطة».

وقد مهدوا للمساومة أولاً بالتصعيد المفتعل للتوتر مع تركيا، ثم بتكتيف القصف على مناطق المعارضة، وكذلك بغض النظر عن العمليات الوحشية التي يقدم عليها النظام في منطقة الغوطة.

غضبت موسكو وطهران لأن مؤتمر الرياض استبعد «المعارضين» المزيفين الموالين لهما أو للنظام. لذلك، أجمعت

الأطراف المتضررة من المؤتمر على ذريعة واحدة لتبير غياب علائتها، وهي أن المؤتمرين، أو بعضاً منهم، «إرهابيون».

فالخارجية الروسية قالت أن قسماً «كبيراً» من المعارضين السوريين قاطعوا «لأنهم رفضوا الجلوس إلى الطاولة نفسها مع متطرفين وإرهابيين». أما نائب وزير الخارجية الإيراني فقال أن «مجموعات إرهابية على صلة بداعش تشارك في هذا الاجتماع». وبالطبع، قال الأسد أنه يرفض التفاوض مع «جماعات إرهابية» إلا بعد «تغيير منهجها والتخلّي عن سلاحها».

وإذ قدّمت تصريحات «أبو محمد الجولاني»، زعيم «جبهة النصرة»، مساندة للنظام والإيرانيين، بتهجّمه على ممثلي الفصائل المقاتلة الذين قال أنهم لا يستطيعون تنفيذ ما يلتزمونه، فإن هذه المساندة ملتبسة لأنها تبعد شبهة الإرهاب عن تلك الفصائل.

ولكي تكتمل الصورة فإن رئيس «حزب الاتحاد الديمقراطي» الكردي صالح مسلم، وهو أحد المستبعدين، اختار اللغة نفسها لتأكيد المحور الذي ينتمي إليه ولم يوفّر أي سبب يدعو إلى تخطئه استبعاده، إذ قال أن «الهدف الأساسي للمؤتمر كان إضفاء شرعية على منظمات وفصائل مشتقة من تنظيم القاعدة».

واعتبر أن كيانات أخرى عربية وكردية وتركمانية «معروفة بمعارضتها للنظام» استبعدت عمداً لأنها لا تدعم مواقف الأطراف الخارجية ولا تلبّي أجنداتها، وكان الأجدى أن يذهب بالصراحة إلى أقصاها للقول أن حزبه وتلك «الكيانات» غيّبت لأنها تدعم أجندة إيران، فيما أن إيران تدعم النظام وتعتبره «خطاً أحمر» (وفقاً لعلي أكبر ولايتي مستشار المرشد)، فهذا يعني أن تلك «الكيانات» ملتزمة هذا «الخط»، ولو دُعيت إلى الرياض لوجب فتح المؤتمر لعدد لا يُحصى من «المعارضين»، ولما أمكن التوافق على شيء.

ولأن مؤتمر الرياض كان لحظة حاسمة لدّسَّ من صنّعتهم استخبارات روسيا وإيران ونظام الأسد في «خربيطة الحل السياسي»، ولا وجود لهم على الأرض، فإن غيابهم شكّل خسارة لمن استثمروا فيهم منذ زمن. وللتحفيض من الخسارة جرى ترتيب ذلك «المؤتمر» في المالكية، إحدى مناطق سيطرة قوات حزب «الاتحاد» الكردي، وكان بين أولوياته مناقشة «مسألة الفيدرالية الديمقراطية»... هذا يدفع بالخيارات إلى ما هو أبعد من «خربيطة فيينا»، بل يرمي إلى توجيه «الحل السياسي» نحو هدف كان لا يزال محور تفكير النظام وإيران، فالفيدرالية هو الاسم الآخر للتجزئة والتفتت والتقطيع.

وجاءت روسيا الآن لدعم هذا التوجّه، بدليل خدماتها الجوية لعمليات «التطهير العرقي» الذي تنفذها قوات النظام ضد التركمان بعد التطهير المذهبي للسنة، مواكبة للتطهير العرقي الذي أقدم عليه حزب «الاتحاد» للعرب في محيط تل أبيض ويواصله حالياً بتهجير التركمان. وليس مصادفةً أن يتزامن ذلك مع استكمال إفراغ حمص من سكانها السنة. وكلّها عمليات لا بد من التذكير بأنها تكرّر السيناريوات الإسرائيليّة لاقتلاع السكان الفلسطينيين.

وهكذا، فإن «مؤتمر المالكية» لم يكن للردّ على مؤتمر الرياض فحسب، بل خصوصاً لخدمة أغراض التحالف الأسد - الإيراني بالردّ على أولى الثوابت التي أجمعـتـ عليها المعارضة في الرياض، وهي «الوحدة أرضًا وشعبًا».

وأعـلـيـ الـأـمـرـ أنـ روـسـياـ وإـيـرانـ لاـ تـكـفـيـانـ بـأـنـ تـتـمـثـلـاـ بـوـفـدـ النـظـامـ فـيـ أيـ مـفـاـوـضـاتـ مـزـمـعـةـ، بلـ تـتـضـامـنـاـنـ مـعـ هـذـاـ النـظـامـ فـيـ السـعـيـ إـلـيـ الـاسـتـحوـادـ عـلـىـ حـصـةـ مـهـمـةـ فـيـ وـفـدـ الـمـعـارـضـةـ، وـطـالـمـاـ أـنـهـمـاـ لـمـ تـحـصـلـاـ عـلـيـهـاـ، فـقـدـ وـجهـتـاـ سـهـامـ النـقـدـ إـلـيـ مـؤـتـمـرـ الـرـياـضـ بـأـنـهـ اـسـتـضـافـ «ـإـرـهـابـيـيـنـ». وـتـلـكـ ذـرـيـعـةـ دـعـائـيـةـ أـصـبـحـتـ مـسـتـهـلـكـةـ، لـاـ يـدـحـضـهـاـ سـوـىـ أـنـ «ـإـرـهـابـ نـظـامـ الأـسـدـ»ـ فـاقـعـ الـبـرـوزـ فـيـ بـدـيـهـيـاتـ صـورـتـهـ وـتـكـوـيـنـهـ وـمـارـسـاتـهـ، وـلـمـ يـضـفـ إـلـيـهـ تـحـالـفـهـ مـعـ روـسـياـ وإـيـرانـ سـوـىـ «ـشـرـعـةـ»ـ هـذـاـ إـرـهـابـ، وـهـمـاـ المشـهـورـتـانـ بـتـرهـيـبـ مـعـارـضـيـهـماـ، أـمـاـ مـاـ نـقـصـ مـنـ تـلـكـ «ـشـرـعـيـةـ»ـ فـاستـكـملـهـ النـظـامـ مـنـ وـحـشـيـةـ «ـدـاعـشـ»ـ، حـتـىـ أـصـبـحـ

قادراً على تخدير المجتمع الدولي بين إرهاب «دولة الأسد» وإرهاب «دولة البغدادي».

والأكيد أن روسيا وإيران والنظام يريدون مفاوضات بين وديين مطابقين، ففي أي عقل يمكن أن يستقيم ذلك؟ فقط في العقل الذي سبق للإسرائيлиين أن عبروا عنه بسعفهم إلى فرض تسوية على الفلسطينيين تقوم على «موازين القوى العسكرية»، والروس والإيرانيون يتمثلون بهذا النهج المستمد من كل ما يعنيه الاحتلال من استبداد وعدوانية.

فكمما أن الإسرائيليين يتوقعون من المفاوض الفلسطيني الرضوخ لإملاءاتهم، كذلك يريد الروس والإيرانيون من المعارض المفاوض أن يبارك بقاء النظام ويكتفي بما يعرضه عليه.

لذلك، يوافق سيرغي لافروف ومحمد جواد ظريف ظاهرياً على بيانات فيينا التي تقول أن مرجعية الحل السياسي هي بيان «جنيف-1»، أما خارج الاجتماعات فيتمسك الروسي بـ«حكومة وحدة وطنية» نافياً أي صفة «انتقالي» للحل المنشود والمفاوضات بمجملها، بل شاططاً البند الأول من «جنيف-1» وهو إقامة «هيئة حكم انتقالي بصلاحيات كاملة».

ويفسّر الأسد والإيرانيون الكلام الروسي بأنه يعني استمرار النظام مع حكومة مطعمّمة بمعارضين حددوا أعدادهم وأسماءهم وحقائبهم مسبقاً. وإذا لم ينجح هذا الخيار، وهو لن يمرّ بأي حال، فإنهم يعتبرون أن الجسم العسكري عاد متاحاً بوجود الحليف الروسي الذي لا تبدي الولايات المتحدة أي إرادة أو رغبة في مواجهته.

بالطبع، هناك أسباب كثيرة للاعتقاد بأن أميركا غير مستعدة لدعم من يرغب من حلفائها الإقليميين في خوض مواجهة طويلة الأمد مع الروس، لأنها غير موافقة عموماً على النتيجة المحتملة لصراع كهذا، وكانت غير مقتنة بدور عسكري للمعارضة وازدادت اقتناعاً بعد التدخل الروسي.

فأقصى ما تمناه هو إقناع روسيا بأن تكون لديها استجابة واقعية لمطالبات حل سياسي «معقول ومتوازن» يمكن الضغط على المعارضة وداعميها لقبوله.

لكن، كلما اقتربت واشنطن من لحظة مفصلية في الشأن السوري، متوقعة أن تلاقيها موسكو في منتصف الطريق، رفعت الأخيرة ورقة أوكرانيا والعقوبات، أي «اعطوا هنا لتأخذوا هناك». ولأنها ترفض أن «تعطى» في أوكرانيا، فإنها لن «تأخذ» في سوريا.

لذا، بدت مشوشة ومرتبكة، إذ لم يفصل سوى ساعات بين بيان للخارجية الأميركيه يرحب بنتائج مؤتمر الرياض، وبين إعلان جون كيري أن لديه «مشكلتين» في تلك النتائج. فهل كان يتصور مثلاً أن تقرّ المعارضة الموافقة على حل سياسي «بوجود الأسد وزمرة»، أم كان يتوقع التزاماً أقل بـ«حكم انتقالي» (بيان جنيف-1) وقبولاً أكثر بـ«حكومة وحدة وطنية» (بيان فيينا). لو كان هذا هو المطلوب لما أمكن أصلاً عقد مؤتمر الرياض.